الباب الرابع

ما هو الميزان الصحيح ؟!

فصل أول : حقيقة الميزان...

فصل ثانٍ : الانصاف في هذا الميزان...

فصل ثالث : الفرق بين ميزان الإسلام وغيره...

فصل رابع : الإسلام يمدح الفقر ، ويمدح الغنى!!!

فصل خامس : .. مع هذا الميزان... بركات...!!

obeikandl.com

obeikandl.com

الفصل الأول

حقيقة الميزان

قال الشاعر العربي :

ومـن الغبـاوة أن تعظّـم جـاهـلاً لجمـال ملبسـه ورونـق رقشـه
أو أن تهيـنَ مهـذّبـاً فـي نفسـه لخمـول ملبسـه ورثَّـة فـرشـه

لكن للأسف نجد غالبية الناس اليوم يزنون الفرد أو الجماعة باللباس والمظهر والمأكل والمشرب!! وويل للأمة التي تنظر إلى الشكليات أكثر من الحقائق ، وويل للجماعة إذا نظرت إلى الصورة وتركت الجوهر.

أما الدين الحق المنزل من عند الله تعالى فلا يهتمّ بالشكليات ، بل لا يحترم المظاهر إنما يركز على الحقائق والمضمون.

ففي الثياب مثلاً ، يحبّ الواحد منا أن يكون ثوبه جميلاً ، وهيئته حسنةً وما المشكلة في ذلك ؟ وهل يعارض الإسلام ذلك ؟

يقول رسول الله ﷺ ـ فيما يرويه عبد الله بن مسعود ـ :

«**لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر**» قال رجل : إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسناً!!

فقال النبي صلوات الله عليه : **«إن الله جميل يحب الجمال ، والكبر بطر الحق وغمط الناس»**[1] .

تلك هي الصورة الواضحة التي يعترف بها الإسلام :

أن يكون ثوبك حسناً ، نظيفاً ، أنيقاً ، جديداً ، غالي الثمن.

أن يكون نعلك أيضاً كذلك.. أن يكون كل ما لديك كذلك ، لا بأس إنما المشكلة أن تظن أن ذلك شارة من شارات الإيمان!!

أن تظن أن من لم يكن كذلك فقد نقص إيمانه ، وضعفت عقيدته!!

ولذلك يأتي حديث شريف آخر يبيّن الحقيقة بجلاء ووضوح :

«ربّ أشعث أغبر ذي طمرين تنبو عنه أعين الناس لو أقسم على الله لأبرّه»[2] .

أن يكون الثوب الحسن والجديد الجميل أحد أبواب الشيطان ليوسوس للإنسان أن يتكبّر على عباد الله تعالى ، هذا ما يرفضه الإسلام ، بل ويشدد على ذلك على لسان رسول الله ﷺ :

«إن العجب ليحبط عمل سبعين سنة»[3] .

و **«من جرّ ثوبه خيلاء لم ينظر الله إليه يوم القيامة»**[4] .

---

(١) رواه مسلم، وأحمد.

(٢) رواه الحاكم في مستدركه، وأبو نعيم في حليته، ومعنى الأشعث: أي الملبّد الشعر، والمغبر: غير مدهون ولا مرجل، ذي طمرين: تثنية طمر وهو الثوب الخلق، تنبو عنه أعين الناس: تغض عن النظر إليه احتقاراً له واستهانة به، لو أقسم على الله لأبرّه: لو حلف على وقوع شيء أوقعه الله إكراماً له بإجابة سؤاله وصيانته من الحنث في يمينه، وهذا لعظم منزلته عند الله وإن كان حقيراً عند الناس.

(٣) رواه الديلمي.

(٤) رواه أحمد.

أما القرآن الكريم فله تحذير شديد اللهجة في ذلك ، كما في قوله تعالى :

﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا ﴾ [الإسراء : ٣٧] .

وفي قوله : ﴿ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴾ [لقمان : ١٨] .

وما الذي يخسره الإنسان لو تواضع . . بل ما الذي يستفيده لو تكبر وتجبّر ؟ القضية هي ، أن تلبس الجديد لا مانع فتحمد الله على ذلك ، وتعتبر ذلك من نعم الله ، وإن كان لديك فضل أن تعطيه للفقراء .

وكذلك لو لبست الثوب نفسه إنما وسوست لك نفسك أنك ما وصلت إلى ذلك إلا لأنك ذكي وشاطر ولديك تدبير وتفكير خارق !!

هنا تتحول النعمة إلى تكبر ، بالنهاية إلى جنهم وبئس القرار .

وما أجمل ما قاله الإمام الرازي في هذا المقام : الخير كله في بيت ومفتاحه التواضع ، والشر كله في بيت ومفتاحه التكبر ، ومما يدلّل على ذلك ، أن آدم ـ عليه السلام ـ تواضع في ذنبه فنال العفو والكرامة ، وأن إبليس تكبر فلم ينفعه شيء .

وما أجمل قول حكيم : أحسن لباس العبد التواضع والانكسار ، وأحسن لباس العارفين التقوى ، كما قال الله تعالى :

﴿ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ﴾ [الأعراف : ٢٦] .

وما أجمل قول الإمام سفيان الثوري ـ رحمه الله ـ : السفلة إذا تعلّموا تواضعوا وإذا افتقروا استطالوا[١] .

---

(١) للتوسع في التواضع وذم الكبر، راجع الأخلاق الإسلامية للناشئة: للمؤلف ط ١/ دار المحبة، ٢/ ٦٥ـ٩٤.

إذاً : قد يكون الإنسان عبقرياً لكن ثيابه رثةً ، وقد تكون ملابسه فاخرة لكنه ذئبٌ يتموّه بلباس ابن آدم.. هذا هو ميزان الإسلام في كل شيء ، من هنا كان الإمام العظيم ، إمام الفقه محمد الشافعي ـ رحمه الله ـ يقول :

علـيّ ثيـاب لـو يبـاع جميعهـا بفلسٍ لكـان الفلـس منهـنّ أكثـرا
وفيهـنّ نفـس لـو تقـاس بمثلهـا نفوس الورى كانت أجلّ وأخطرا

هذا مثال واحد

كذلك في المأكل : حيث كانت سيرة سيدنا رسول الله أنصع وأبيض من ذات البياض ، ويحدثنا الإمام الغزالي في الإحياء حديثاً عن القدوة الأعظم في الأكل فيقول ـ رحمه الله ـ :

كان رسول الله ﷺ يأكل ما وجد.. وكان يأكل خبز الشعير غير منخول!!

وجاءه عثمان بن عفان ـ رضي الله عنه ـ بفالوذج ، فأكل منه ، وقال : ما هذا يا أبا عبد الله ؟ قال : بأبي أنت وأمي ، نجعل السمن والعسل في البرمة ، ونضعها على النار ، ثم نغليه ، ثم نأخذ مخّ الحنطة إذا طحنت ، فنقليه على السمن ، والعسل في البرمة ، ثم نسوطه حتى ينضج فيأتي كما ترى.. فقال رسول الله ﷺ : **«إن هذا الطعام طيب»** .

وكان أحب الطعام إليه اللحم وفيه يقول : **«هو يزيد في السّمع وهو سيد الطعام في الدنيا والآخرة ولو سألت ربي أن يطعمنيه كل يومٍ لفعل»** .

وكان ﷺ يأكل لحم الطير الذي يُصاد وكان لا يبيعه ولا يصيده ، ويحب أن يُصاد له ويؤتى به فيأكله[1] .

---

(١) للتوسع راجع إحياء علوم الدين: ٣/ ٨٥ـ٩١.

لكن إن لم يجد هل يفعل شيئاً ؟ هل يُصدر قراراً بمصادرة أموال الشعب ؟!

أبداً ما كان بفعل ذلك ، لأن الأكل ليس هو الميزان وليس هو الغاية ، إنما هو وسيلة للقيام بما أمره الله من صلوات وعبادات ، ولذلك تحدثنا السيدة عائشة فتقول : مات رسول الله ﷺ وما في بيتي شيء يأكله ذو كبدٍ إلا شطر شعير في رفٍّ لي ، وقال لي صلوات الله عليه :

«إني عرض عليّ أن تجعل لي بطحاء مكة ذهباً!! فقلت يا رب : أجوع يوماً ، وأشبع يوماً ، فأما اليوم الذي أجوع فيه فأتضرع إليك وأدعوك ، وأما اليوم الذي أشبع فيه ، فأحمدك وأثني عليك» .

وتروي السيدة حفصة بنت عمر رضي الله عنهما قالت : كان فراش رسول الله ﷺ في بيته مسحاً نثنيه له ثنيتين فينام عليه ، فثنيناه له ليلة بأربع ، فلما أصبح قال : ما فرشتموا لي الليلة ؟ فذكرنا ذلك ، فقال : ردّوه بحاله فإن وطأته منعتني الليلة صلاتي!!!

هذه هي فلسفة الإسلام ، وهذا هو الميزان الصحيح في نظر الإسلام : إن وُجد الطعام ومن أي نوع فلا بأس ، وإن لم يوجد فليس هنالك مشكلة ، يبيت وقتها الإنسان جائعاً متذكراً ما يعانيه إخوانه الفقراء أياماً وليالي :

هذا هو رسول الله ﷺ يجوع ، ويجوع ، فتمسح السيدة عائشة رضي الله عنها على بطنه وتبكي وهي تقول : نفسي لك الفداء ، لو تبلغت من الدنيا بما يقوتك.. فيقول صلوات الله عليه : يا عائشة! ما لي وللدنيا ، إخواني من أولي العزم من الرسل صبروا على ما هو أشدّ من هذا ، فمضوا على حالهم فقدموا على ربهم فأكرم مآبهم ، وأجزل ثوابهم ، فأجدني أستحي إن ترفهتُ في معيشتي أن يقصرَ بي غداً دونهم ، وما من شيء هو أحبّ إليّ من اللحوق بإخواني وأخلائي!!

وذاك أنس بن مالك ـ رضي الله عنه ـ يروي : أن فاطمة بنت النبي ﷺ جاءت بكسرة خبز إليه ، فقال لها : ما هذه الكسرة يا فاطمة ؟ قالت : قرصٌ خبزته فلم تطب نفسي حتى آتيك بهذه الكسرة ، فقال النبي ﷺ : أما إنّه أوّلُ طعامٍ دخل فم أبيك منذ ثلاثة أيامٍ يا فاطمة!!

بل يذهب الإسلام إلى أبعد من ذلك ، فيرى للميزان هذا دقةً وأي دقة ، بحيث قد يُبعد الله تعالى المقربين إليه عن حطام الدنيا وزخرفها والتي يخيل إلينا أنها نعيم من حاز منه شيئاً ما فقد نال السعادة كلها!! من ذلك ما رواه الإمام أحمد في كتابه الزهد عن وهب عن نبي الله موسى عليه السلام عن الله تعالى حيث يقول :

«إني لأذود أوليائي عن نعيم الدنيا ورخائها ، كما يذود الراعي الشفيق إبله عن مراعي الهلكة ، وإني لأجنّبهم سكونها وعيشها كما يجنّبُ الراعي الشفيق إبله عن مبارك الغرّة ، وما ذلك لهوانهم عليّ ، ولكن ليستكملوا نصيبهم من كرامتي سالماً موفوراً ، لم تكلمْهُ الدنيا ، ولم يطفئه الهوى»[1] .

هكذا إذاً يارسول الله!! يروي البخاري ومسلم بسندهما المتصل إلى السيدة عائشة أنها قالت : كان ﷺ يلبس من الثياب ما وجد من إزار ، أو رداء ، أو قميص أو جبة أو غير ذلك!!

القضية ليست هي اللباس ونوعه ، إنما القضية ما تحت اللباس!! وعلى الرأس : تارة يلبس القلانس تحت العمائم وبغير عمائم ـ كما روى ذلك الطبراني وأبو الشيخ والبيهقي ـ وربما نزع قلنسوته من رأسه فجعلها سترة بين يده ، ثم يصلي إليها ، وربما لم تكن العمامة فيشد العصابة على رأسه

---

(١) مبارك الغرّة: أماكن الغفلة.
وتكلمه: تجرحه.
يطفئه: يذهب بهجته.

وعلى جبهته ـ كما في رواية ابن عباس رضي الله عنهما ـ

إذن ليست القضية بنوع العمامة وقطرها وطولها ، إنما القضية بالدماغ الذي تحت العمامة . . أهو دماغ مسخّر للخير . . لخدمة البشر . . أم ماذا! ؟ إن الميزان هو أن النبي ﷺ كان إذا أتاه لباس جديد ، يدفع بلباسه القديم إلى الفقراء . . ولم يكن يرتبه في الخزانات والأدراج !!

يروي البيهقي في الشعب والحاكم في مستدركه : أن النبي ﷺ كان إذا لبس جديداً أعطى خلق ثيابه مسكيناً ، ثم يقول :

«ما من مسلمٍ يكسو مسلماً من سَمَلِ ثيابه لا يكسوه إلا لله إلا كان في ضمان الله وحرزه وخيره ما واراه حيّاً وميتاً» .

. . هذا في المأكل ، والملبس ، والفرش ، وفي كل تفاصيل حياة المسلم عليه أن يقوم بتطبيق هذا الميزان ، وأن يكون نصب عينيه هدفاً أسمى من تكديس وتجميع حطام الدنيا وزخارفها ، إنما أن يكون الهدف الأول والأخير مرضاة الله تعالى ، التي إن فاضت في القلب انعكس ذلك حباً لعباده جميعاً ، وعندها ينفتح الإنسان على كل الخلق فيعتبرهم إخوةً له في الإنسانية ، يحب لهم ما يحب لنفسه ، ويدفع عنهم كل ما يراه مسيئاً له ولهم ، ولن تجد الإنسانية ظالماً ولا مظلوماً!! ولن نجد من يموت بطراً وبطنة وإلى جنبه من يموت من الجوع والحرمان !!

* * *

الفصل الثاني

الإنصاف في هذا الميزان

وكان من خصائص هذا الميزان الإسلامي الفريد ، أنه احترم الجسد واحترم الروح ، واهتم بالخصائص العليا للإنسان ، كما كفل ضرورات الحياة للغرائز الدنيا ، فجعلها تتحرك ولكن داخل إطار معلوم ، وسياج حارس ، وتقاليد ضابطة ، وفضائل معروفة مقصاة ، فترك الغريزة الجنسية ـ كما قال الشيخ محمد الغزالي ـ تأخذ مداها في بيت الزوج ، في فراش الزوجية ، ومنع ما وراء ذلك منعاً صارماً حاسماً!!

نعم ، لقد حض الإسلام على الزواج الشرعي ، وأغلق ـ مشدداً ـ كل منافذ الشهوة ، والأبواب الخلفية للقاءات المشبوهة ، والتي تتمّ تحت الأضواء الخافتة أو الكاشفة ، والصفراء منها أو الحمراء . . . !!

فهي سياسة الإنصاف والعدل ، فهو ميزان يبيح للإنسان أن يأكل ، لكن يبيّن له أن القصد والعفاف خير له وأولى ، كما أخبر النبي ﷺ صلوات الله عليه : «**كلوا واشربوا والبسوا وتصدقوا في غير إسرافٍ ولا مخيلة**»[1] .

أرأيت إلى هذا التزاوج السامي بين الروح والجسد ، فهو يحافظ على الجسد ويحافظ على الروح ، إنه لا يتلف الروح على حساب الجسد ، ولا يتلف الجسد على حساب الروح تنام ، وتأكل ، وتمارس الحياة الزوجية ،

---

(١) رواه البخاري (٧/ ١٨٢) والنسائي (٥/ ٧٩) وابن ماجه (٢/ ١١٩٢) والإمام أحمد (٢/ ١٨١).

وتصلي وتصوم ، وتتهجد وتذكر ، وتخرج إلى الطبيعة وتتجول بين البساتين وعلى ضفاف الأنهار ، وتحاسب نفسك وتبكي في محراب عبوديتك . .

لنستمع إلى ميزة هذا الميزان من فم الحبيب محمد ﷺ :

«اللهم إني أعوذ بك من الجوع فإنه بئس الضجيع ، وأعوذ بك من الخيانة ، فإنها بئست البطانة . . .»[1] .

ويرفع يديه ـ صلوات الله عليه ـ مرةً أخرى ويقول :

«اللهم إني أعوذ بك من الكفر والفقر ، اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ، لا إله إلا أنت»[2] .

إنها الإنصاف ميزة هذا الميزان : فالكفر ضياع الآخرة ، وكذلك الفقر ضياع الدنيا ، وعذاب القبر بينهما . . .

وهكذا لم يتخلّ الإسلام عن الدنيا على حساب الآخرة ، ولم يتخلّ عن الآخرة على حساب الدنيا ، بل جمع الاثنين معاً ، مخبراً أن الإنسان خُلق من الطين ، من هذا التراب المهين ، لكن ليس ذلك مشكلة ، إنما القيمة في الروح أيضاً ، ولذلك جاء البيان الإلهي يصور هذه الحقيقة بدقة متناهية :

﴿ إِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّي خَٰلِقٌۢ بَشَرًا مِّن طِينٍ ﴿٧١﴾ فَإِذَا سَوَّيْتُهُۥ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِى فَقَعُوا۟ لَهُۥ سَٰجِدِينَ ﴾ [ص : ٧١ـ٧٢] .

أيّ ميزان دقيق هذا ؟! اسجدوا أيها الملائكة لأول البشر ـ آدم عليه السلام ـ ولا تحسبوا سجودكم لطينيته ، إنما سجودكم لأني نفخت فيه من

---

(١) رواه أبو داود (٤/ ٤٠٦) والنسائي (٨/ ١٦٣) وابن ماجه (٢/ ١١١٣).

(٢) رواه أبو داود (١٣/ ٤٣٣)، والنسائي (٨/ ٢٦٧) والحاكم (١/ ٢٥٢) والبيهقي (٧/ ١٢) وأحمد (٥/ ٤٢).

روحي. . ، ولذلك حينما يتخلّى الإنسان عن سموه وروحه وعقله ، يعود إلى طينيته وحيوانيته وبهيميته وغرائزه ، وعندها لن يكون السجود له ، إنما وقتها لن يساوي أي شيء. .

﴿ ۞ وَقِيلَ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ مَاذَآ أَنزَلَ رَبُّكُمْ ۚ قَالُوا۟ خَيْرًا ۗ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۚ وَلَدَارُ ٱلْءَاخِرَةِ خَيْرٌ ۚ وَلَنِعْمَ دَارُ ٱلْمُتَّقِينَ ﴾ [النحل : ٣٠] .

وما أجمل تلك القصة التي يحفظها غالبيتنا ، والتي فيها أن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه مرّ ذات يوم أمام الصحابة فكشفت الريح عن ساقيه ، فضحك بعض الصحابة عندما رأو دقّة ساقيه ، فجاء إنصاف الميزان المحمدي ليقول : «إن ساقي عبد الله بن مسعود تعادلان في الميزان جبل أحد!!!»

أرأيت إلام يهدف الإسلام! ؟

لو تصفحنا تعاليم الإسلام كلها لوجدناها تدور حول تزكية النفس ورفع مستواها ، لكن الجميل في الأمر أن ذلك يكون في الجسد والروح معاً. .

ففي الصلاة : يأمرنا الباري عز وجل بالوضوء ، بحيث يطهّر الواحد منا أعضاء جسده ـ يد وفم ووجه وشعر و. . . ـ ثم يأمرنا الباري أن إذا وقفتم بين يديّ في الصلاة فاخشعوا وتذكروا أنكم تقفون بين يدي من يطلع على السرّ وأخفى ، واعلموا أن الله لا يقبل من الصلاة إلا ما وعيتم منها وفهمتم لذلك تسمو الروح وتطهر كما طهر الجسد!!

وفي الصوم كذلك : تطهير للفم والمعدة ، وتطهير للروح من الغيبة والنميمة.

وفي الزكاة كذلك : تطهير للمال، وتطهير للنفس والروح من أثر هجوم الدنيا وحب زينتها على الإنسان.

والحج ـ الذي يذهب إليه بعض الناس وهملا يعلمون حقيقة ذلك ـ إن

المطلوب من الناس لا أن يطوفوا بالكعبة ـ أحجاراً ـ ولا أن يرموا الحصيات على إبليس شكلاً ولا أن يقبلوا الحجر الأسود ـ حجراً ـ ولا . . . إنما أن يذهبوا إلى الحج ويعلموا ما قاله النبي في حجة الوداع :

«تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن اعتصمتم به كتاب الله»[1] .

ثم يأتي الميزان المحمدي : **«أيها الناس : ألا إن ربكم واحد وإن أباكم واحد ، ألا لا فضل لعربي على أعجمي ولا لعجمي على عربي ولا لأحمر على أسود ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى»**[2] .

فمتى سنعي هذه الحقائق التي يريدها الإسلام ؟!

* * *

---

(١) رواه مسلم (٤/ ٤١) وأبو داود (٥/ ٣٦٠).

(٢) رواه أحمد (٥/ ٤١١).

obeikandl.com

الفصل الثالث

الفرق بين ميزان الإسلام وغيره...

قد يعترض أناس علينا قائلين : إن هذا الميزان وما يتَّصفُ به نجده في كثيرٍ من القوانين الوضعية ، وجوابنا أنه يستحيل أن تجد فلسفة للمال وللميزان كهذا الذي تجده في الإسلام ، ذلك لأن الآخرين يطالبون الفرد بأن يجمع المال كيفما كان الحال والمصدر .

١ـ لكن ميزان الإسلام يربي الفرد المسلم على أن يمارس أسباب معاشه بدافع وظيفي لا بدافع من التعشق النفسي ، وفي ذلك يقول د . البوطي كلاماً تفصيلياً : ولعله أهم الأسس التي يتميز بها الاقتصاد الإسلامي من غيره ، وأبرز مظهر في سياسته ، وهو بالنسبة إلى الأسس الباقية كالروح من الجسد ، لا قيمة لوجوده من دونها .

والمعنى الاقتصادي الذي يتجلى في هذا الأساس ، هو أن الإنسان لا يستطيع أن يستفيد من السلعة التي يتاجر بها ، إلا إذا كان مالكاً لها ، مع قدرٍ كبير من الاستغناء عنها وعدم التعلق بها ، أرأيت إلى بائع الحلوى ، إنه لا يستطيع أن يعود بربح مما قد يبيع إلا إذا أقبل إليها شبعان لا تهفو نفسه إلى شيء منها ، فأما إن كانت نفسه تهفو إليها ، ويتحلب ريقه اشتياقاً إلى أن يطعم منها ، بحيث يجعل منها فطوره كلما أصبح وعشاءه كلما أمسى ، فإن تجارته تلك لن تحقق له إلا الندامة والخسران .

ولا يختلف سبيل استخدام المعايش الإنسانية ، على مستوى الفرد أو الجماعة ، عن هذا المثال الجزئي ، في منظار الحقيقة الإسلامية ، فلا بدّ

للأمة التي تريد أن تمارس أسباب معايشها الدنيوية على نحو يحقق لها الإزدهار الاقتصادي ، دون أن يشوبه شيء من المنغصات الاجتماعية والحضارية ، أقول : لا بدّ لها من أن تمارس أسباب هذه المعايش ممارسة الحاكم عليها والمستخدم لها ، دون أن يكون لها من سبيل إلى التحكم بنفوس أفرادها .

فأما إن أقبلت إلى أسباب معايشها هذه ، إقبال الجائع النهم المتعلق بها على هذا الأساس ، فلا بد أن تسكرها ، ثم تستعبدها ، ثم تطوّح بها في أقصى أودية الشقاء طال الطريق إلى ذلك أم قصر .

غير أن أكثر الشعوب والجماعات ، وجلّ علماء الاقتصاد وفلاسفة الاقتصاد السياسي ، لا يزالون غافلين عن هذه الحقيقة الهامة ، فضلاً عن أن يدركوا شيئاً من أهميتها وخطورتها ، ولذا فقد وقع أكثرهم في المغبّة التي حذر الإسلام منها ، وأقام من هذا الأساس الاقتصادي وقاية للإنسان الفرد والمجتمعات من الوقع فيها .

إذن فكيف يسلك القرآن بالإنسان نحو هذه التربية ، التي تجعله يمارس أسباب معاشه بدافع وظيفي لا بسابق من النهم أو التعشق النفسي ؟

يضع القرآن الإنسان قبل كل شيء أمام بيانات واضحة تنبهه إلى أن هذه المتع الدنيوية كلها ، إن هي إلا سراب باطل وظل زائل وخيال لا قيمة له ، ويصور له القرآن هذه الحقيقة بأساليب شتى ، فهو يقول :

﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

ويقول : ﴿ لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ ﴿١٩٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ ﴾ [آل عمران : ١٩٦ـ١٩٧] .

ويقول : ﴿ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴾ [النساء : ٧٢] .

ويقول : ﴿ وَيَوْمَ يُعْرَضُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ عَلَى ٱلنَّارِ أَذْهَبْتُمْ طَيِّبَٰتِكُمْ فِى حَيَاتِكُمُ ٱلدُّنْيَا وَٱسْتَمْتَعْتُم بِهَا فَٱلْيَوْمَ تُجْزَوْنَ عَذَابَ ٱلْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ وَبِمَا كُنتُمْ تَفْسُقُونَ ﴾ [الأحقاف : ٢٠] .

ويقول : ﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱلْبَٰقِيَٰتُ ٱلصَّٰلِحَٰتُ خَيْرٌ عِندَ رَبِّكَ ثَوَابًا وَخَيْرٌ أَمَلًا ﴾ [الكهف : ٤٦] .

ولو أن خطاب الله لعباده ، وقف من تحليل حقيقة الدنيا وقيمة المعايش التي فيها ، عند هذه الآيات وأمثالها ، إذن لكان جديراً بمن كان يصغي إليها عن يقين وإيمان ، أن ينفض يديه من الدنيا وأسبابها ، وأن لا يأخذ منها إلا قدر الضرورة وبُلْغَةَ الحياة وسدّ الرمق ، لأن من شأن هذه الآيات أن تكرّه الدنيا بكل ما فيها من مقومات العيش وأسبابه ، إلى نفس الإنسان المؤمن بربه الموقن بكلامه ، العارف بمصيره .

ولكن هذه الآيات إنما تمثل ، في الحقيقة ، الشطر الأول من المنهاج التربوي الذي يجذب به القرآن الإنسان إلى صعيد هذا الأساس الاقتصادي الهام الذي نتحدث عنه.. حتى إذا حققت هذه الآيات هدفها ، فأفرغت قلب الإنسان المؤمن بكلام الله ، من التعلّق بالدنيا وزخرفها ، وهيأته لأن يضحي بها إذا اقتضى الأمر ، وأن يترفع ويتسامى عليها ، أقبلت إليه آيات ربانية أخرى ، تمثل الشطر الثاني من هذا المنهاج التربوي المتكامل ، إذ يقول الله عز وجل فيها :

﴿ هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَٱسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا ﴾ [هود : ٦١] : أي أمركم بعمارتها.

ويقول : ﴿ قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِىٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ﴾ [الأعراف : ٣٢] .

ويقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ﴾ [البقرة : ٢٩] .

ويقول : ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ ﴾ [المائدة : ٨٧] .

ويقول : ﴿ هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥] .

وهكذا فما ينبغي أن تفهم تلك الطائفة من الآيات ، وهي التي بيّنت تفاهة الدنيا وهوانها ، بمعزل عن هذه الطائفة الثانية التي تدعو الإنسان إلى التعامل معها وتنهاه عن الأعراض عنها ، كما أنه ما ينبغي أن يُفهم هذان الشطران إلا على أنهما جزءان من كلٍّ متكامل .

إن كلا الطائفتين من هذه الآيات القرآنية ، تبرز معادلة دقيقة بين صفتين ثابتتين لمغريات الدنيا وخيراتها ، كل منهما علاج لما قد يكون في الثاني من المخاطر والأضرار ، وكل منهما أداه في الوقت ذاته لنيل ما قد يكون في الثاني من الحوافز والخيرات .

فإذا ربّي الإنسان على هذا التصور الكامل ، وتشبع فكره ووجدانه بالحقيقة المؤلفة من كلا هذين الشطرين ، فإنه لن يفرّ من الدنيا ومتعها ومسؤولياتها ، ولكنه لن يقبل إليها أيضاً بسائق من النهم الغريزي والطمع النفسي ، وإنما يمارس نشاطه الاقتصادي ممارسة موظف مسؤول كُلّف أن يقوم بمهمة محددة معلومة ، وهو حتى إن وجد في ممارسته للدنيا متعة نفسه ، فإنه لن تجرفه بتيارها ولن تورثه إلا مزيداً من النشاط المنظم المرسوم في نطاق النهوض بمسؤولياته التي كلف بها ، ولن يتم العثور على ضمانة للتحقق بمثل هذا الأساس التربوي الهام ، في غير سبيل القرآن تدبراً له ويقيناً به ، مهما بذل الناس من جهود ، ومهما تفلسف علماء الاقتصاد والاجتماع . [1] .

---

(١) باختصار من قضايا فقهية معاصرة: ١٦ـ٢٠ .

٢ـ فارق آخر[١] :

أن الإسلام ينظر للمال عامةً على أنه وسيلة وليس غاية : فالمال في الإسلام ليس مذموماً لذاته ، بل هو مذموم فيما إذا اتخذ غاية وسبباً.

والمال المذموم في الإسلام هو المال الذي يكون غاية لذاته ، وأن يكون صاحبه حريصاً على اكتنازه وادخاره ، ومنع الآخرين من الانتفاع به بدورانه من يد إلى أخرى.

والزهد في المال لا يُتصور تمام التصور فيمن هو محروم منه ، ولكن الزهد فيه يكون واضحاً فيمن أوتي مالاً كثيراً فزهد فيه وأنفقه في وجوه البر والإحسان.

لكن النظم الأخرى تنظر إلى المال عكس هذه النظرة ، والواقع العالمي خير دليل على ذلك!!

٣ـ المال خير إذا جاء من حلّه ووضع في محله :

كما روى البيهقي متصلاً إلى رسول الله ﷺ أنه قال : **الدنيا خضرة حلوة ، من اكتسب فيها مالاً من حلّه وأنفقه في حقه أثابه الله عليه ، وأورده الله جنته ، ومن اكتسب مالاً من غير حلّه وأنفقه في غير حقه ، أحلّه الله دار الهوان ، ورُبّ متخوض في مال الله ورسوله له النار يوم القيامة»** .

لذلك فالمال في نظر الإسلام خير وليس شراً بدليل قوله تعالى :

﴿ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ ﴾ [البقرة : ٢١٥] .

وقوله : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ﴾ [البقرة : ٢٧٢] .

---

(١) بتصرف واختصار من المال في الإسلام للدكتور محمود البابلي: ١٧ـ٢٣ .

وقوله : ﴿ إِن تَرَكَ خَيْرًا ٱلْوَصِيَّةُ لِلْوَٰلِدَيْنِ ﴾ [البقرة : ١٨٠] .

فهل نجد لهذا القول مكاناً آخر غير ميزان الإسلام ؟!

٤ـ متى يكون المال شراً ؟

في ذلك يقول د . البابلي : يقول رب العالمين عن المال إنه زينة الحياة الدنيا لمن يغتر به ، ويلهيه عن العمل للآخرة :

﴿ ٱلْمَالُ وَٱلْبَنُونَ زِينَةُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ﴾ [الكهف : ٤٦] .

ويقول : ﴿ زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴾ [آل عمران : ١٤] .

وفي القرآن أمثلة عديدة على تكالب الإنسان على المال والخروج به عن الغاية التي أبيح من أجلها ، وهي أن يكون عوناً على قضاء الحاجة بمقدار هذه الحاجة ، لأن اكتناز الأموال خوفاً من الوقوع في الفقر هو من وسوسة الشيطان ، لأن الشيطان يخوف أولياءه بالفقر ، ويأمرهم بالبخل ، ولأنه لا يريد للإنسان الخير مطلقاً ، بل إنه يزين لهم أعمال الشر على أنها خير .

والبخلاء مطايا الشيطان لتحقيق معصية الله بالخروج عن جادة الاعتدال ، وهو يزين لهم أعمالهم فيضلهم عن سواء السبيل ، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعاً .

كما أن الإدخار لأكثر من الحاجة ، أي حبس المال حباً في المال ، يعني الإنسياق مع وسوسة الشيطان والخضوع لتعاليمه ، والاعتماد على المال الذي يكنزه صاحبه .

قال الله تعالى : ﴿ ٱلشَّيْطَٰنُ يَعِدُكُمُ ٱلْفَقْرَ وَيَأْمُرُكُم بِٱلْفَحْشَآءِ ﴾ [البقرة : ٢٦٨] .

وعلى هذا نجد الإسلام حريصاً على تضييق مسالك الشيطان ومداخله وإن إغلاق هذه المداخل ، أو شدة تضييقها عليه هو في مخالفته وعدم الركون إليه وعدم الوثوق بوسواسه ، وقد قال تعالى :

﴿ وَمَن يَتَّخِذِ ٱلشَّيْطَٰنَ وَلِيًّا مِّن دُونِ ٱللَّهِ فَقَدْ خَسِرَ خُسْرَانًا مُّبِينًا ﴿١١٩﴾ يَعِدُهُمْ وَيُمَنِّيهِمْ ۖ وَمَا يَعِدُهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ إِلَّا غُرُورًا ﴾ [النساء : ١١٩-١٢٠] .

والقصص الواردة في القرآن ـ والتي سنعود لشرحها ـ كقصة قارون ، وقصة المعتز بماله ورجاله ـ سورة الكهف ـ وقصة ثعلبة ، وقصة أصحاب الجنة الواردة في سورة القلم لخير دليل على ذلك.

لذلك عقب ربنا سبحانه على هذه القصص بقوله حاضاً على الانفاق :

﴿ مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴾ [البقرة : ٢٦١] .

وبقوله : ﴿ وَأَنفِقُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا تُلْقُوا۟ بِأَيْدِيكُمْ إِلَى ٱلتَّهْلُكَةِ ۛ وَأَحْسِنُوٓا۟ ۛ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴾ [البقرة : ١٩٥] .

لذلك فالامتناع عن الإنفاق يحوّل المال إلى مكمن للشر ، بل إلى التهلكة نفسها ، وهذا ما نجده في أحاديث كثيرة عن رسول الله ﷺ تؤكد جميعها هذه الحقيقة التي لا نجد أي نظامٍ آخر يحض عليها ، أو يتحدث بهذا التفصيل مثلما تحدث الإسلام ، ومن ذلك :

«يا ابن آدم إن تبذل الفضل خير لك ، وإن تمسكه شر لك ، ولا تلام على كفاف ، وابدأ بمن تعول ، واليد العليا خير من اليد السفلى..»[1] .

---

(١) رواه الترمذي ومسلم.

وقوله : «واتقوا الشح فإن الشح أهلك من كان قبلكم»[1] .

٥ـ النظر إلى مصلحة الفرد والجماعة ضمن إطار المصلحة العامة :

فيما سنرى في الفصول القادمة ، أن ميزان الإسلام راعى مصلحة الفرد ، وراعى مصلحة الجماعة ، فلا هو انحاز إلى الفرد كما هو الحال في الرأسمالية ، يستطيع الفرد فيها ، أن يجمع من الأموال ما يشاء دون محاسبة من أحد ، حتى لو كان ذلك على حساب الجماعة ، بل على حساب المصلحة العامة ، ولا هو انحاز إلى الجماعة على حساب الفرد كما فعلت الاشتراكية ، بحيث ألغت الملكية الخاصة ، وحوّلت كل شيء لصالح القطاع العام.

إنما ميزان الإسلام أن يتملّك الفرد وتتملك الجماعة.. ولكلٍ قيود وضوابط لا تسمح بطغيان الواحدة على الأخرى ، والمقياس بينهما هو شرع الله :

﴿ فَإِن تَنَٰزَعۡتُمۡ فِي شَيۡءٖ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ ﴾ [النساء : ٥٩] .

ووضع الشارع أموراً قويّة تفتت الثروة الفردية : كالزكاة ، والميراث ، والوصية ، وهي أمور مبثوثة في بطون أمهات كتب الفقه لمن أراد الإطلاع والزيادة.

٦ـ في ميزان الإسلام جُعل النشاط الاقتصادي ـ ممارسته ـ عبادة من العبادات التي يثيب الله عليها!! وهذا لن نجده في القوانين الأخرى أبداً .

كما في قول الله تعالى : ﴿ هُوَ ٱلَّذِي جَعَلَ لَكُمُ ٱلۡأَرۡضَ ذَلُولٗا فَٱمۡشُواْ فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُواْ مِن رِّزۡقِهِۦۖ وَإِلَيۡهِ ٱلنُّشُورُ ﴾ [الملك : ١٥] .

إنه تنفيذ أمر من أوامر الله تعالى ، وتنفيذ أي أمر له أجر ، ومخالفته

---

(١) رواه أبو داود.

فيه إثم ، وقد بيّن رسول الله ﷺ في أحاديث متعددة ذلك ، كما في قوله : «**طلب الحلال فريضة بعد الفريضة**»[1] .

وكذلك في قوله ﷺ :

«**إن من الذنوب ذنوباً لا يكفرّها الصلاة ولا الحج ولا العمرة ، ولكن يكفرّها الهموم في طلب العيش**»[2] .

أرأيت إلى هذه المقارنة النبوية : بين الصلاة والحج والعمرة ، وبين طلب العيش وحمل هموم ذلك!!

ولذلك طالبه الإسلام أن يخلص عمله في النشاط الاقتصادي مثلاً في الزكاة والصدقة كما عليه أن يخلص في العبادات : حج وصلاة.

﴿ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ [الأنعام : ١٦٢] .

ثم يصعّد الإسلام الأمر أكثر ، ليعتبر النشاط الاقتصادي من الأمور التي سيسأل عنها أكثر من غيرها!!

«**لا تزول قدما عبدٍ يوم القيامة حتى يُسأل عن عمره فيم أفناه ، وعن علمه فيم فعل ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيم أنفقه ، وعن جسمه فيم أبلاه**»[3] .

ألم يقل الله تعالى :

﴿ فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ [الحجر : ٩٢-٩٣] .

كما ويدخل في ذلك : أن الله يراقب ويطلع ويعلم الصغيرة والكبيرة ،

---

(١) رواه الطبراني.
(٢) رواه أبو نعيم عن أبي هريرة.
(٣) رواه الترمذي.